لفتة إعلامية

الإعلام والتراث العربي المخطوط

Media and Arabic manuscript heritage

عبد الرحمن هاشم *

abhashem2009@gmail.com

"إرثنا المخطوط في زمن العولمة" شعار حمله الاحتفال بيوم المخطوط العربي 31 مارس 2022 م الذي نظمته منظمة التربية والثقافة والعلوم "الألسكو" بالتعاون مع جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا وعُقد بأوبرا الجامعة وهو حقًّا يومٌ عظيم أسعدني. ومع ذلك، وبينما كنت أستمع وأستمتع بكلمات العلماء الخبراء والتحديات الهائلة التي تتربص بالإرث المخطوط في هذه المتاهة التي يمر بها عالم اليوم من إعادة توزيع الأدوار وترتيب الأوراق ورسم الخرائط وما تمر به الأمتان العربية والإسلامية من تغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية، تساءلت عمّا إذا كنّا نشهد أيضًا شكلًا من أشكال التقلّص في الدور الإعلامي المنوط به خدمة هذا التراث المخطوط في شهر الاحتفال به من كل عام، وهو الحدث الذي كنا نأمل أن يكون على الخريطة الإعلامية العربية بكافة درجاتها وتنوعاتها.

---

* **الخبير الإعلامي بمركز تحقيق التراث العربي بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، ورئيس تحرير موقع العالم اليوم نيوز.**

من احتفال إلى احتفال، يبدو أنّ حظّ المخطوط العربي من الاهتمام الإعلامي قليل. ومهما كان الأمر، فلا يزال الاحتفال بيوم المخطوط أو بالإرث المخطوط بالنسبة للمتمسكين باللغة والهوية العربية حدثًا لا غنى عنه.

لقد تساءل الأستاذ الدكتور الراحل محمد فوزي جاب الله –الخبير بمركز تحقيق التراث العربي بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا– عن دور الإعلام في التعريف بإرثنا المخطوط في أبريل الماضي.

لم يكن أبدًا راضيا عن هذا الدور بينما يحتشد هذا الإعلام العربي بجميع وسائله للترويج لأيّ شيءٍ يأتي من الآخر الخارجي.

قد يتعارض مشهد تخصيص أيام للاحتفال بالهوية واللغة والتراث والعلم وهذه القيم الأصيلة التي ينساها البعض في خضم الانشغال بالبحث عن لقمة العيش مع فكرة الانجاز والعمل والإسقاط على الواقع المعاصر. ولكن بعد التفكير في الأمر عن كثب، وكما نستدعي هذه القيم في احتفالاتنا الدورية بها، نستفسر ونعيد التفكير في كلمات هذا التراث الّتي نُقشت من خلالها الأفكار والرؤى والتصورات السامية التي انبثقت من أذهان علمائنا في السابق وبما لا يشكك في كونهم قد انفتحوا على فهمٍ لتراثهم أيضًا فجددوا وأضافوا وأبدعوا ولم ينفصلوا مطلقًا عن قديمهم.

وكما أبدع أستاذنا الجليل الدكتور كمال عرفات نبهان نظريته غير المسبوقة وهي نظرية "الببليوجرام" وعرفنا منها كيف تستدرج الكتب بعضها البعض، والأفكار بعضها البعض، لا بد أن نستفيد من هذه العلاقات الّتي

امتدّت عبر الزمان بين الأعمال والمؤلّفين. وبين الكتب التي تتعارض مع بعضها البعض، والكتب التي تجيب عن بعضها البعض.

ولكي يتحصَّل الاستكشاف تأتي أهمية المخطوط في الرجوع إلى كلمةٍ أو مفهومٍ أو كلامٍ منقوش، ومن خلال البحث والتنقيب يتقدّم الباحث ويتقدّم معه العلم.

وماذا يُفيد الإعلام؟

الإعلام هنا مفيدٌ في اكتشاف المخطوط والاعتناء به وبناشريه ومحققيه. ومفيدٌ أكثر وأكثر وقت أن يعرف بالفعل كيفيّة ترجمة المخطوط وجعله معاصرًا في نهاية المطاف.

إننا لا شك نكون أعداء أنفسنا وقت أن نقطع الصلة بهذا التراث المخطوط وبخاصة أن من نظنهم أعداء لنا هم أكثر الناس اهتماما بحيازة مخطوطاتنا القديمة التي تعود بنا إلى ألف عام أو يزيد!

إنهم يشجعون كل جهد يبذل في رصد المخطوطات أو جمعها وفهرستها وترميمها وحفظها، ثم في تحقيق نصوصها ومعالجة نماذجها نسخًا وقراءة وحلا لمشكلاتها واستجلاء لغوامضها، ويتناولونها بالدراسة والتحليل بحثا عما يمكن أن تتضمنه من معلومات قد تفيد أو لا تفيد.

وماذا يُفيد التعليم؟

التعليم هو نقطة الانطلاق، ومن المفيد هنا أن أقول: دلني على كلية واحدة من كليات الإعلام يوجد بين مقرراتها مقرر يربط بين التاريخ والحاضر؟

إن المملكة المتحدة تقرر على طلاب الصف الأول الثانوي مجلدا إجباريا عن تاريخ بريطانيا. وهذا بدوره يثير مسألة المكانة التي يحتلها تدريس التاريخ في المجتمع العربي المعاصر. إنه للأسف الشديد مقررا اختياريا وليس إجباريا!

وأستحضر هنا ما قاله الأستاذ الدكتور كمال عرفان نبهان وتندر به: لا يليق بطالب جامعي أن يعلق في ذهنه أن العصر الفاطمي أقدم من العصر الفرعوني ويكتب ذلك في ورقة الإجابة!

وحينما يستدعي الطالب ويناقشه، دار هذا الحوار الذي يعكس حالة التعليم في بلادنا:

- يا بني: كتبتَ أن العصر الفاطمي أسبق من العصر الفرعوني؟
- نعم أستاذي.
- يا بني: هل رأيت الجامع الأزهر؟
- نعم أستاذي.
- وهل رأيت الأهرامات؟
- نعم أستاذي.
- فأيهما أقدم في نظرك؟
- صمت.

وإذا كان الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد باشا الذي بح صوته في الدعوة إلى وضع مقررات دراسية في تاريخ العلم يرى أن هناك تحيزًا واضحًا في الاهتمام العالمي بتراث العلماء الغربيين دون غيرهم فإن مما يحزن حقاً تجاهل أو نسيان تاريخ حضارتنا العربية الإسلامية التي ظل علماؤها الرواد لأكثر من ثمانية قرون طوال يشعون على العالم علماً وفناً وأدباً ومدنية!

هل تم التعريف بمؤلفاتهم ومخطوطاتهم المفقودة، أو التي لا تزال بكرًا في مظانها المختلفة بأنحاء متفرقة من العالم، حتى تحظى بالبحث والدراسة من جموع الباحثين المعاصرين؟

ولا زال الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد باشا ينادي بوضع مقررات لتاريخ العلوم في الجامعات العربية تتيح لطلاب هذه الجامعات الوقوف على الأسس التي تقوم عليها العلوم التي درسوها ومن ثم انتشار الفهم العميق للماضي العلمي والتقني بينهم فيتخرج الواحد منهم وهو يحترم تراثه ويكون عليه من السهل إدراك أن بعض الاكتشافات التي تقدم اليوم على أنها إنجازات ثورية وإبداعية غير مسبوقة، قد لا تكون في الحقيقة سوى إعادة تشكيل لبعض الأفكار القديمة التي أهملت وغمرها النسيان لسنين عديدة.

إذن، المطلوب خطة مدروسة لتدريس التاريخ لطلاب الإعلام تجعلهم أكثر اهتمامًا بالتراث المخطوط عند العرب والمسلمين، وتجعلهم بعد تخرجهم أكثر استعداداً لمناقشة قضايا هذا التراث واستشراف مستقبله، وكشف حالات الغش الفكري والقرصنة العلمية من قبل بعض المؤرخين والنَقَلَة والمستشرقين.

وحتى توضع هذه المناهج وحتى يدرسها الجيل الحالي، ينبغي على الحكومات العربية وضع سياسة إعلامية شاملة، تنفذها وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، تتخذ موقف المدافع عن التراث بما تسوقه على ألسنة خبراء هذا التراث وعلمائه من أدلة مقنعة تؤكد أهميته ومكانته في حياتنا المعاصرة والآتية، وبالتالي تقديم رسالة مفادها ضرورة أن نعمل على رعايته والإفادة منه في حاضرنا ومستقبلنا.

وأرى أنه من الأهمية بمكان استغلال الثورة الرقمية والتقنيات الحديثة في توثيق المواد التراثية، والعمل على إبرازها ونشرها وتسويقها من خلال الأفلام التسجيلية وفن الجرافيك مرورًا بإنتاج مسلسلات السيرة الذاتية لعلماء الحضارة الإسلامية الذين خدموا البشرية بإنتاجهم العلمي المخطوط، وتأسيس أبواب خاصة بالتراث في الصحف والمواقع والمجلات تستكتب علماؤه والمتخصصين فيه وتنشر أخباره وتتابع فعالياته ومهرجاناته ومعارضه داخل الوطن العربي وخارجه.

وأحسب أن هذه الوسائل يمكن أن تقوم بدور كبير في الذود عن هذا التراث وحمايته من السرقة والتزييف والتدمير بما تستبقه من عمليات توثيق بالصوت والصورة.

إذن المهام المأمولة من واضعي الخطة الإعلامية بالنسبة لقضية التراث عموما والإرث المخطوط خصوصا تتمثل في (التعريف – التوثيق – النشر

الدفاع)، وبما يقدم منتج إعلامي متميز ذي خصوصية فضلا عن مخاطبة جميع الفئات والوصول بالتوعية التراثية إلى أكبر شريحة من الجماهير.

وينبغي على كل وسيلة إعلامية وطنية أن يكون ضمن كادرها مختصون في مجال التراث بأنواعه، حتى تكون المادة المطروحة دقيقةً في محتواها، صادقة في مضمونها.

ولا ينبغي أن يفوتنا الحديث عن دور الإعلام في التعريف بالمراكز التعليمية والبحثية المتخصصة في التراث المخطوط ودورها الكبير في الحفاظ عليه من خلال خطتها الدراسية التي تغطي جميع جوانبه، وطبع الدراسات المتعلقة به، أو ترجمة ما كتب عنه، أو الاتصال بكل من له اهتمام به من أجل تبادل المعلومات، وذلك من خلال عقد الندوات، أو المشاركة في المعارض الخارجية والمسابقات الثقافية الكبرى.

هذه المراكز والمعاهد لم تحظَ بما هو مطلوب من تغطية إعلامية كافية. والمأمول كذلك دعم إنتاج أفلام وبرامج تلفزيونية وإذاعية من أجل نشر الوعي بما تحتويه مكتبات العالم من كنوز المخطوطات العربية والتعريف بها من خلال البرامج الوثائقية المتخصصة.

إن العلاقة القائمة بين الإعلام والتراث العربي المخطوط يتحتم أن تكون علاقة تفاعلية متبادلة يخدم كل منهما الآخر، وينبغي أن يستفيد النص التراثي بما يحمل من أفكار من الإعلام في الوصول بشكل أوسع إلى الجماهير

والتعريف به، في حين يستفيد منه الإعلام في الحصول على منتج إعلامي مميز وذي خصوصية يلقى إقبالاً واهتماماً جماهيرياً متفاعلا.

وفي الختام، أدعو منظمة التربية والثقافة والعلوم (الألسكو) وجميع المعاهد والمراكز المعنية بتحقيق التراث وإحيائه في الوطن العربي والعالم الإسلامي، أدعوهم لإعطاء انطلاقة حقيقية لإعلام متخصص يخدم هذا التراث، من خلال تبني إعلاميين وإعدادهم بالدورات المجانية والدبلومات المجانية حتى يكونوا متخصصين ينفعون تراثهم عن علم، ويطلقون البرامج التي توعي الأجيال بقيمة هذا التراث الغني المتنوع، والتي تذود عنه وتدفع عنه الشبهات والافتراءات.